حافظ مفخرة العرب

« وحبيب الشاميين »

يا سيداتي و يا سادتي

اذا رحب اهل هذه الديار بحافظ ابراهيم بك فانما يرحبون بنابغة عظيم في الشعر العربي أخرجه من ثيابه البالية وألبسه من عبقريته ثوباً جميلاً شفافاً يليق ان تظهر به أمة كانت أعظم أمم الارض بحضارتها وآدابها وهي تحرص اليوم ان تسترد ذاك الماضي الباهر مطبوعاً بطابع العصر الحديث .

ليس شاعر النيل من الرجال الذين يحتاجون الى التعريف بهم والترجمة لهم فشعره

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كالأمثال السائرة وقصائده يحفظها الرجال والنساء وله من الحرمة في كل قلب مالا يقل عن اعظامنا لأكبر شاعر من شعرائنا في الدهر الغابر .

وكل هذا لانه صرّف الشعر منذ نشأته في الاغراض الشريفة صرّفه في رفع مستوى الامة في العلم والعمل فوصف داءها ودواءها وهزّ بوعظه اوتار قلوبها فكان شاعر الاجتماع غير مدافع لابتداعه طريقة جديدة في تثقيف العقول وتهذيب الملكات فكان بتأثير شعره مرشد أمته ولسانها الناطق بالحق .

ومهما بالغنا معاشر الشاميين بالحفاوة بشاعر النيل فاننا نرد عليه الآن واحداً من مئة مما أسداه الينا خاصة وللأمة العربية عامة . هو خلّد أعمال الشاميين بشعره الخالد فلا عجب اذا احتفلت به عاصمة الأمويين اليوم بجميع طبقاتها فانه السابق الى الفضل والاحسان .

وان منبر المجمع العلمي العربي ليفاخر منذ تأسيسه بان اسم حافظ ذكر عليه عشرات من المرات وأنشدت قصائده ورقائقه وحكمه واستشهد المحاضرون بشعره وكانت آخر محاضرة في تحليل روحه السامي وشعره الاجتماعي مما القاه هذا العاجز في السنة الماضية وقد قلت في جملتها :

« وعشق حافظ الشام ايضاً ولم يطوّف ارجاءها ولا رأى ارضها وسماءها وعاشر الشاميين وحنا عليهم وذكرهم بالاعجاب في شعره السائر يهزّ باءِ قدامهم نفوس الخاملين من المصريين ليحذوا في الكسب حذوهم و يضربوا في الآفاق على مثالهم .

ومن شعره في غلاء الاسعار يذكرهم بالشاميين و يقرع المصريين :

ايها المصلحون أصلحتم الار ض وبتم عن النفوس نياما
اصلحوا انفساً اضرّ بها الفقـ ـر واحيا بموتها الآثاما
ليس في طوقها الرحيل ولا الجـ ـد ولا ان تواصل الاقداما
تؤثر الموت في ربى النيل جوعاً وترى العار ان تعاف المقاما
ورجال الشآم في كرة الار ض يبارون في المسير الغماما
ركبوا البحر جاوزوا القطب فاتوا موقع النيرين خاضوا الظلاما
يتخطون الخطوب في طلب العيـ ـش و يبرون للنضال السهاما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وبنو مصر في حمى النيل صرعى يرقبون القضاء عاماً فعاما
ايها النيل كيف نمسي عطاشا في بلاد رويت فيها الاناما
يرد الواغل الغريب فيروى وبنوك الكرام تشكو الاواما
ان لين الطباع اورثنا الذ ل واغرى بنا الجفاة الطغاما
ان طيب المناخ جرّ علينا في سبيل الحياة ذاك الزحاما

ومن هذا المعنى ماقاله في قصيدته (الامتان لنصاالخان) و يعني بهما الامة المصرية والامة الشامية امتدح فيها ابناء الشام وسيرتهم في اميركا ولاسيما في نشر اللغة العربية :

بارض (كولمب) ابطال غطارفة اسد جياع اذا ما ووثبوا وثبوا
لم يحمهم علم فيها ولا عدد سوى مضاء تحامى ورده النوب
اسطولهم امل في البحر مرتحل وجيشهم عمل في البر مغترب
لم بكل خضمّ مسرب نهج وفي ذرى كل طود مسلك عجب
لم تبد بارقة في أفق منتجع الا وكان لها بالشام مرتقب
ماعابهم انهم في الارض قد نثروا فالشهب منثورة مذ كانت الشهب
ولم يضرهم سراء في منا كبها فكل حي له في الكون مضطرب
رادوا المناهل في الدنيا ولو وجدوا الى المجرة ركباً صاعداً ركبوا
اوقيل في الشمس للراجين منتجع مدوا لها سبباً في الجو وانتدبوا
سعوا الى الكسب محموداً ومافتئت ام اللغات بذاك السعي تكتسب
فأين كان الشآميون كان لها عيش جديد وفضل ليس يحتجب

وفي هذه القصيدة يقول في اتحاد مصر والشام في الجنس اللغة وتشاركهما في الهناء والشقاء :

ركنان للشرق لازالت ربوعهما قلب الهلال عليها خافق يجب
خدران للضاد لم تهتك ستورهما ولا تحول عن مغناهما الادب
امّ اللغات غداة الفخر أمهما وان سألت عن الآباء فالعرب
اذا المت بوادي النيل نازلة باتت لها راسيات الشام تضطرب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وان دعا في ثرى الاهرام ذو ألم ... اجابه في ذرى لبنان منتحب
لو اخلص النيل والأردن ودهما ... تصافحت منهما الامواه والعشب

وقد ختم هذه القصيدة في الصلح بين الاختين بقوله :

هذي يدي عن بني مصر تصافحكم ... فصافحوها تصافح نفسها العرب
فما الكنانة الا الشام عاج على ... ربوعها من بنيها سادة نجب
لولا رجال تغالوا في سياستهم ... منا ومنهم لما لمنا ولا عتبوا
ان يكتبوا لي ذنباً في مودتهم ... فانما الفخر في الذنب الذي كتبوا

وقال من ابيات :

يضيق على السوري رحب بلاده ... فيركب للأهوال ما هو راكبه
فما هي الا ان تجشمه النوى ... وما هو الا ان تشد ركائبه

ووجه كلامه الى مصر كأنه يريد الصلح بين القطرين فقال ابياتاً ثلاثة :

ماذا جنيت وما جناه بنوك ... أظلمتهم يا مصر ام ظلموك
فبسمت للغرب الطموح واهله ... ومختهم فوق الذي مخوك
وعبست في وجه الشآم وانما ... قطر الشآم وان عبست اخوك

وقال من قصيدة في تكريم صديقه خليل مطران :

انما الشام والكنانة صنوا ... ن برغم الخطوب عاشا لزاما
أمكم أمنا وقد أرضعتنا ... من هداها ونحن نأبى الفطاما

وآخر حسنات حافظ قصيدته الأخيرة التي يقول فيها وهي كسائر شعره كلما كررت حلت :

أبت أمية ان تفنى محامدها ... على المدى وابى ابناه غسان
فمن غطارفة في جلق نجب ... ومن غطارفة في ارض حوران
عافوا المذلة في الدنيا فعندهم ... عز الحياة وعز الموت سيان
لا يصبرون على ضيم يحاوله ... باغ من الانس او طاغ من الجان
شققت أسواق بيروت فما اخذت ... عيناي في ساحها حانوت يوناني
فقلت في غبطة لله درهم ... ليس الفلاح لوانٍ غير يقظان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تيمموا ارض (كولمب) فما شعرت منهم بوطء غريب الدار حيران
سادوا وشادوا وابلوا في مناكبها بلاء مضطلع بالامر معوان
ان ضاق ميدان سبق عن عزائمهم صاحت بهم فأروها الف ميدان
لا يستثيرون ان هموا سوى همم تأبى المقام على ذل واذعان
ولا يبالون ان كانت قبورهم ذرى الشوامخ او أجواف حيتان
في الكون مورقهم في الشام مغرسهم والغرس يزكو نقالاً بين بلدان
ان لم يفوزوا بسلطان يعزهم ففي المهاجر قد عزوا بسلطان
او ضاقت الشام عن برهان قدرتهم ففي المهاجر قد جاؤا ببرهان
انا رأينا كراماً من رجالهم كانوا عليهم لدينا خير عنوان
انى التقينا التقى في كل مجتمع اهل باهل واخوان باخوان
كم في نواحي ربوع النيل من طرف للبازجي وصروف وزيدان
وكم لاحيائهم في الصحف من اثر له المقطم والاهرام ركنان

اما وقد رأينا هذا النموذج الصغير من عطف حافظ على الشاميين أفلا يتصاغر بريكم كل اكرام أمام محاسنه الكثيرة . الا يغتبط منا كل من غذي زمناً بثمرات روحه ان يرى اليوم شخصه الكريم بين أظهرنا . الا نعتقد كلنا اننا عاجزون عن شكره والى القصور في الحفاوة به لا يسعنا الا عفوه .

يا اخي حافظ . اننا نحييك معترفين ببعض أياديك البيض . نحيي في شخصك شاعر النيل ابناء النيل الاعزة . نحيي بك مصر المحبوبة والنبوغ المصري . ومتى رجعت بالسلامة الى مطلع شمسك فاقرأ على اهلك وعشيرتك سلام جيرانهم في الشام واذا انساك شيطان الشعر ذلك فالرجاء من رفيقك في رحلتك صديقي شاعر القطرين خليل بك مطران الذي كان طول حياته أحسن صلة وعائد بين المصر بين والشاميين لمكان اخلاقه العالية وأدبه الجم ان يعذر قصورنا فهو من أعرف الناس بنا وبهم . هذا والله يمنع الأمة بحياة حافظ ويزيد في هنائه وسعادته .

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net